صور الفقر

عبد الحليم فضل الله

2007/12/8

نظرة واحدة على أرصفة مدينة كالكوتا الهندية، كفيلة بتطوير وعينا للكلمات وللمفاهيم، "خط الفقر" هو مثلاً مؤشر عادي في عائلة المؤشرات المتداولة، التي من مهامها تحويل الكيف إلى كم، هكذا يفهمه الاقتصاديون وهكذا يتصرف تجاهه أهل السياسة. لكن خط الفقر في تلك المدينة الواقعة في الطرف الشرقي من شبه القارة، يعني أن مئات الآلاف يعيشون بلا مأوى مهددين بالموت جوعاً، وأن عدداً كبيراً من الأطفال يمضي وقته في التسول بتدبير من مافيات الطرق، وان الغالبية الساحقة من الوجوه التي تصادفها تحتجب خلف سحابة كئيبة من نقص التغذية (في الهند 250 مليون فرد يعيشون بأقل من دولار واحد يوميا)، ويعني أيضاً أن بوسعك التجول ليس فقط في المركبات والسيارات بل أيضاً في العربات التي يجرّها .. البشر. إن معاينة المأساة عن قرب تشجعنا على تحدي التحفظ الأكاديمي، المسكون بهاجس الحياد، والمصاب بهوس النظريات والمعادلات، التي لا يقر لها قرار قبل أن تجرد الظواهر الاجتماعية من ملامحها الإنسانية الحيّة.

ومع أن مشهد الفقر صعب وقاتم، فإنّا نراه من خلال صوره البديلة التي تقل عنه قسوة ووحشية. فبوسعك أن تحصي أعداد الفقراء، لكن لا يمكنك البتة قياس ألم أولئك العاجزين عن عبور الفجوة المتسعة باطراد بين عالمي الجوع والتخمة. أما برامج مكافحة الفقر التي يحاول البنك الدولي من خلالها تلميع صورة الليبرالية الجشعة، فتحيلك إلى ناحية بعيدة، إلى الردهات الفارهة والقاعات الفخمة، وإلى كبار الموظفين الناعمين بدفء البيروقراطيات العالمية، الذين يفضلون الحروب الافتراضية بياقاتهم البيض، على تحمل مجازفة الطرق الوعرة، وصولاً إلى سياسات أقل ما يقال عنها أنها قاصرة ومليئة بسوء الفهم. ولعل صانعي الأحداث في العالم لم يقرروا بعد معاينة ما يدور في قاع المجتمع حيث تزيد نسب الهائمين في متاهة الجوع والعوز عن ثلث البشرية، وحيث لا يتم الاعتراف بالمأساة ما لم يخالطها شيء من السياسة أو بدت طافية على سطح السوق.

بيد أنّ التجربة الفريدة التي خطها البروفسير البنغالي محمد يونس تدل على وجود خيارات أخرى. فإبان المجاعة التي ضربت بلاده عام 1974، كان يونس مشغولاً بتلقين طلابه النظريات الاقتصادية الراقية بينما كان الناس يتساقطون جوعاً، أحسّ حينها بمدى "عجرفة أمثاله من المنظّرين الذين يظنون أنهم يمتلكون الإجابة على كل الأسئلة الصعبة". يقول يونس: "لقد كنا

نحن أساتذة الاقتصاد نتميز بشدة الذكاء مع ذلك لم نكن نعرف شيئاً عن الفقر الذي يحيط بنا من كل جانب" ومن ذلك الوقت بدأت حكايته مع بنك الفقراء (بنك جرامين) الذي نال على أساسها جائزة نوبل للسلام نظير جهوده في خلق "تنمية اقتصادية اجتماعية من أسفل". وقد انتشل هذا البنك الملايين من جوف الفقر مسجلاً خلال عقدين من الزمن أكثر من ستة ملايين قرض مصغّر تفوق قيمتها 5.75 مليارات دولار أميركي، مستبدلاً الضمانات المادية التي لا يملكها الفقراء بضمانات اجتماعية.

الثورة الحقيقية هنا لا تكمن بالنتائج فقط بل في المفاهيم، فالفقر ليس مشكلة اقتصادية بحتة، إنه مشكلة سياسية ثقافية وأخلاقية بالقدر نفسه، مكافحة الفقر بالتالي لا تحقق أهدافها ما لم تندمج في سياق أعمق وأشمل. ولذلك كان على المقترضين من "بنك الفقراء" أن يتعهدوا ليس فقط بتسديد قروضهم بل بالالتزام بلائحة من ستة عشر تعهداً (من بينها مثلاً الانضباط والوحدة والعمل الجماعي، وعدم إلحاق الظلم بأي كان، تحسين أماكن السكن، تعليم الأبناء، نظافة البيئة..).

لقد انتقد يونس غموض مفهوم الفقير لدى القائمين على برامج التنمية، فالفقر لا ينتج فقط نتيجة النقص في الدخل بل هو حصيلة عوامل عديدة من بينها النقص الموروث في الملكية جراء النهب التاريخي، وتهافت القيم وغياب روح المشاركة والتضامن والاعتماد في عمليات التوزيع وإعادة التوزيع إما على حافز الربح وإما على تحلي الحكومات برغبة كافية بمد يد المساعدة. إن مشكلة الفقر هي بالتالي نتيجة سياسات محلية وكونيّة مغلوطة ومقصودة وحصيلة الممارسات غير العادلة التي تطبع تصرفات المجتمع الحديث وتؤدي من ثم إلى بقاء دائرتي الفقر والغنى مغلقتين الواحدة تجاه الأخرى.

في المقلب الآخر، مقلب الهيئات الرسمية والبيروقراطيات الدولية تمثلت بارقة الأمل الوحيدة في "إعلان الألفية الثالثة"، الذي تعهدت بتنفيذه 191 دولة شاركت في القمة العالمية التي عقدت في الأمم المتحدة عام 2000، ومن بين المبادئ الثمانية التي نص عليها الإعلان، تصدّر هدف تخفيض نسبة السكان الذين يعانون من الجوع والفقر المدقع إلى النصف بحلول عام 2015. لكن بعد سبع سنوات من الإعلان، وقبل ثماني سنوات على الموعد النهائي لتحقيق أهداف الألفية، النتائج مخيبة للآمال. وبحسب تقرير صادر عن منظمة الأغذية والزراعة الدولية "الفاو" تشهد الحرب على الجوع انتكاسة خطيرة، فبعد انخفاض نسبة الجياع في العالم في النصف الثاني من التسعينات، عادت هذه النسبة للارتفاع ما أبقى أعداد الذين يعانون من نقص حاد في الغذاء حوالي 842 مليون نسمة من بينهم 798 مليونا في البلدان النامية.

إن فشل المجتمع الدولي بما فيه من دول ومؤسسات في مكافحة الفقر أمر قوي الدلالة إذا ما قورن بنجاح التجربة الخلاقة التي قادها محاضر جامعي في أحد أكثر البلدان فقراً، ويعود ذلك

في جانب منه إلى المنطق والرؤية، فإذا كان الفقر مشكلة إنسانية واجتماعية بالدرجة الأولى فإن الحلول تتطلب آليات غير تقليدية تقع خارج سلطة السوق، وتتضمن مزيجاً من القيم والبرامج، وعلى مدبري السياسات أن يتعاملوا بجدية مع مشكلة النقص المادي في الموارد وسوء التوزيع لكن عليهم أن يعملوا في الوقت نفسه على تطوير الترتيبات الاجتماعية والأخلاقية التي من شأنها إيجاد بيئة مؤاتية تخرج أكبر عدد ممكن من الدائرة المقفلة للفقر والتخلف.